أُرخي قبضَتي
أمامَ وجهي؛ ثمَّ أجمعُ العطورَ من
شقوقِ أقدامي،
وأنصبُ الفخوخَ فيها.
من أينَ للعشّاقِ أنْ يُهرِّبوا الأمشاطَ
للنِّساءْ؟
لا ديكَ في الدِّماءْ،
والأختُ لم تَسْرَحْ بِأغنامِ الإلَهْ ـ
(تلقَّنَتْ أنغامَ شيخوختِها عن
سائحٍ،
وانْتَبَهَتْ لـلأرجلِ الّتي تَعَلَّقَتْ
على الجِباه،
ثمَّ اختفتْ في كوخِها المائيِّ عن
ضوءِ العسس؛
وغابتِ الأرضُ الحرامُ بين
ثدييْها...)
يزدحمُ الميدانُ بالقدور والأثافي،
يصطفِقُ الفضاءُ بالسّوافي،
والنّاسُ حول النّارِ يسمعون كيف
تزحفُ الغاباتُ،
ينتظرون أن تجيئَهم رِقاعٌ رَثّةٌ
تسمحُ بالرِّهان، أو تسمحُ بالختانْ؛
ينتظرونَ موعدَ انتهاءِ قَطفِ القُطْنِ في
القطبِ الجنوبي؛
ينتظرون أنْ تطفرَ من إذاعةِ اللّيلِ
إشاعةٌ حريريّةْ
تُغَلِّفُ الآذانَ بالحلوى وبالقِصَصْ!

وهكذا...
ينتظرون عودةَ الأختِ الّتي
ستولدُ الخيولُ من أثدائِها،
ومن بَراري شَعْرِها ستولدُ الكثبانْ...
وليس لي سوى الطّوافِ حول النّارِ
والغناءِ في الميدانْ:

أغنية كنعان الأولىٰ

وَجْهي، أيا مِدْخَنةً من رُؤىً
أيُّ البيوتِ اقتَسَمَتْ مقتليك؟
تركتَ للكُهّانِ أقداسَهم
وَظَلَّتِ القيعانُ وَقْفاً عليك!

تدري بأنَّ المنتهى سالكٌ
وأنَّهُ لا ينتهي في يديكْ،
وأنَّهُ يعقرُ أبقارَهُ
ويعقدُ الآثارَ في أخمصيك؛
وأنَّ من فاءَ إليهِ القِرىٰ
تُشيرُ من بُعْدٍ عصاهُ إليك ـ
فكيفَ سَبَّحْتَ لأقمارِهِ
ولم يزلْ ضيفاً غريباً لديكْ؟

سألتَ عنهُ العُشْبَ في دِمْنَةٍ
فجفَّ في الدِّمْنَةِ عشبُ السّؤالْ؛
وسرتَ في النّارِ إلى كهفِهِ
علَّك في الكَهْفِ تُوافي بِلالْ.
وحين لاحتْ سِدْرةُ المنتهىٰ
وَحَلَّ في المشكاةِ رَبُّ الجبالْ،
وذاعَ في الأسواقِ أنَّ الضُّحىٰ
يجيءُ من بَيّارةِ البرتقالْ
أَطْلَقْتَ من رِدْنَيْكَ، عن شهْوَةٍ،
كلَّ غزالاتِ الرَّدىٰ والجَمالْ.
لكنَّهُ أجْبَرَ قُبْطانَهُ
أنْ يحفرَ الموجَ بِخَصْفِ النِّعالْ.
أنْ ينقشَ الوحشَ بأظفارِهِ
علىٰ مَرايا ساحةِ الاحْتِفالْ؛
فكيفَ عَرَّجْتَ على كهفِهِ
وكهفُهُ لم يَحْوِ غيرَ الظِّلالْ؟

وَجْهي، أيا مدخنةً من رُؤىً
عليكَ أنْ تقولَ ما لا يُقالْ... (1)

(1) النّشيد الأوّل من أثر شعري طويل بعنوان كتاب كنعان المقدّس.

قصة

إنسان عادي

ديزي الأمير

أنا إنسانٌ عاديّ، قالها دون تردُّد، وهو يردّ على سؤالي عن اسمه.

أجبته بسرعة:

ـ ليس في الدّنيا إنسان عاديّ؛ كلُّ فردٍ مميَّز عن غيره في أشياء كثيرة.

كنتُ أعني ما أقول، ولكن كلامي لم يؤثّر في تواضعه فعاد يكرِّر:

ـ لا تسأليني عن اسمي. أنا إنسان عاديّ من هؤلاء الكثيرين الذين تلتقين بهم ولا تفكّرين بالتعرُّف إليهم.

أخجلني كلامه، وكان قد كال لي المديحَ عن كتاباتي التي يتتبّعها على حدِّ تعبيره، وأصرّ على أنّه إنسان عاديّ.

سألته: تصرُّ على ذلك؟

أجاب: وأصرّ على أنَّك مميَّزة.

كنت في حاجة لمن يرفع معنويّاتي. وهو لم يكن في حاجة إلى هذا. فَشكلُهُ وتصرُّفاته في مديريّة الجوازات وهو يعدّ جوازه للسّفر، ويدري أيّة غرفة يدخل، وأيّة أوراق يقدِّم... دليل على تميّزه. كانت طريقتي تدلُّ على ارتباكي، أنا التي لم أكن قد سافرت سنواتٍ أنستني كيفيّة التقدُّم بالطّلب ونوعَ الأوراق الثبوتيّة المطلوبة، وهو ما جعلني أسأل كلّ الغرف في المديريّة ومَن فيها.

وكنتُ كلّما ذهبتُ إلى المطار لاستقبال مسافرين أو لتوديعهم، أضيع في متاهات الأروقة، ولا أميِّز اتّجاهات الأسهم الصّاعدة والنّازلة. ولطالما وصلت إلى مكان الاستقبال بدل التّوديع، وصعدت سلالمَ كان يجب أن أهبطها، وأركض خوفاً من وصول الرّكّاب أو سفرهم دون أن ألتقيهم. فكيف وأنا المسافرة اليوم ولا أدري كيف أتّجه في مبنى مليء بغرف الموظّفين والمراجعين بعضهم مثلي يسأل

عن الخطوة التالية... ولكن هذا الإنسان العاديّ كان أكثر مَنْ يعرف خطواته دون سؤال أو حيرة.

ويُقال لي إنّي مميَّزة؟!

عدتُ أتطلّع إلى الدّاخلين والخارجين من الغرف، فلم أرَ بينهم «الإنسان العاديّ». لاشكَّ في أنّه أنهى معاملاته ووضع جواز سفره، الممهور بكلّ التّواقيع والدّمغات، في جيبه. ولعلّه في طريقه إلى المطار.

في طريقي إلى المطار، رأيت الأنوار التي جعلت الشّارع العريض الطّويل مشعّاً كأنّ الدّنيا نهار. وكانت السيّارات تعجُّ فيه.

الدّنيا بخير وأنا كنت أظنّ أنّ كثيرين مثلي قد زهدوا بالسّفر وتقوقعوا في بيوتهم واكتفوا برؤية المطارات والمسافرين من خلال شاشة التلفزيون التي كنت أظنّها كبيرة. وها هو اللّيل معي واسع مضيء صافٍ آمن مزدحم بالبشر... أكثر ممّا كنت أرى في ضوء الشّمس.

الدّنيا حلوة، والحياة مليئة بالحركة، والنّاس غير مرتبكين.

في السّفرات الآتية، سأصبح مثل عابري هذا الشّارع المنفتحين على العالم بشتّى أقطاره والعائدين بتجارب السّفر. فالحياة أوسع ممّا كنت أظنّ، وأكثر إيناساً ممّا كنت أحسّ.

في المطار التقيتُ عدداً من المسافرين الّذين أعرف بعضهم، ولكنّ الكلّ تجاهل الكلّ. كانت ساعاتِ انتظارٍ طويلةً. فجأةً رأيتُ الإنسان العاديّ يدخل القاعة ويجلس بعيداً في ركنٍ خالٍ. ولأعترف بأنّني كنتُ قد انتحيت أنا أيضاً زاوية بعيدة.

تأمّلتُ النّاس أحصي عدد «المميَّزين» منهم وعدد «العاديّين» من طريقة تصرّفهم الواثقة أو المرتبكة.

استمرَّت النّداءات تعلن عن موعد الرّحلات. خرجتُ مع النّاس حين جاء دوري من أحد الأبواب. وعلى مقعد الطائرة أدرتُ وجهي، ولكنّي لم أرَ الإنسان العاديّ.

وصلَتْ طائرتُنا في الموعد المحدَّد لها، وفي ارتباكي أثناء التّفتيش عن الحقائب لم أرَ مَنْ كنتُ أُفتّش عنه.

انشغلتُ بالتفرُّج على معالم البلد الجديد. وبدا لي أنّ النّاس، كلّ النّاس، غير عاديّين: لكلٍّ اسمُه وبيتُه وأصدقاؤه وأهله. وأمّا أنا فمع أهمّيّة مناسبة زيارتي لهذا البلد، فإنّ علاقتي به تقتصر على عدد من التّلاميذ الّذين يدرسون قصصي. لم أحسّ أنّ هذا حدث مهمّ؛ إنّه لم يُزل إحساسي بالغربة، ولم يقرّبني من جوّ النّاس والشّوارع والقاعات الغريبة. أنا في حاجة ماسّة إلى صحبة أليفة غير رسميّة.

على مائدة في مطعم إيطالي، سألتني المستشرقة، التي دعتني، عن الصّحن الذي أختاره. ارتبكتُ، ولم أتذكّر غير «البيتزا». نظرت النّادلةُ إليَّ باستغراب؛ فللبيتزا مطاعم خاصّة أقلّ مستوى من هذا المطعم الّذي يقدِّم الصّحون الإيطاليّة المميَّزة. ولكي أخفي خجلي أخبرتها أنّ هذا هو الصّحن المفضّل عندي.

ذكرت لي المستشرقة قائمة طويلة من أسماء الصحون الإيطاليّة التي تعرفها تماماً، نسبة إلى أصلها الإيطالي. سألتها إن كانت لاتزال تهتمّ بالمطبخ الإيطالي وقد هاجر أجدادها من هناك إلى أميركا منذ زمن؟ أجابتني أنّها تعمّدت هذا لمعرفتها باهتمام العرب بالطّعام ذي التّوابل.

تأمّلتُ قائمة الطّعام فإذا بصحن «البيتزا» هو الأرخص ثمناً.

لقد نسيتُ بعد هذه الفترة الطويلة من عدم السفر أو ارتياد المطاعم، أسماء الأطعمة اللّذيذة الغريبة. فلقد صارت أمورٌ كهذه غير مألوفة.

وأنا في حيرتي كيف أتصرّف كيْلا أبدو متخلّفة بعيني النادلة والدّاعين، سمعت موسيقى عالية وتصفيقاً وغناءً وإيقاعات رقص. تطلّعتُ إلى الوراء وإذا بسربٍ من النّوادل يحيطون بمائدة وهم يصفّقون ويغنّون. كانوا لايزالون يرتدون الثياب المخصّصة للعمل. أدرتُ رأسي ألتمس ذريعة لأؤجّل تحديد الصّحن الذي سأتناوله للعشاء.

كانت أغنية «سنة حلوة» باللّغة الإنكليزيّة يردِّدها الواقفون من العاملين في المطعم. ومن خلال فجوة صغيرة رأيتُ قالبَ حلوى عليه شموع ومَنْ حوله يرقصون ويقهقهون فرحاً، دائرين حول رجل ضخم منتفخ الأوداج جالسٍ وحده أمام قالب الحلوى يضحك بفرح. ولم أتبيَّن اسمه إذ كنت أحتاجُ إلى كثيرٍ من التّركيز لأفرزه من بين كلمات الأغنية.

لم يتحرَّك الجلوس في المطعم ولم يديروا وجوههم صوب المحتفى به.

النّادلات شابّات رشيقات جميلات أنيقات، وكذلك بقيّة العاملين المشتركين باحتفال التّهنئة.

كان على هؤلاء العاملين في المطعم واجبُ مشاركة الضّيف الفرحَ بعيد ميلاده. لقد دفع ثمن عواطفهم وتهانيهم وابتهاجهم وتصفيقهم وترديد أماني أغنية الميلاد له وهو يهتزّ فرحاً. لقد نال ما دفع ثمنه. دفع ثمن الاحتفال بذكرى تشريفه إلى الحياة ومن جملة أعمال النّادل هنا أن يبيع فرحه، والشّاري يعرف أنّ هذه المشاعر مزيَّفة مشتراة، ولكن كيف يداري وحدته في هذا اليوم المميَّز بالنسبة له.. في بلد ليس فيه صداقات ولا محبّة ولا مودّة ولا حتّى تعارف؟

هذا إنسان عادي يُحتفى به لقاء ثمن يدفعه.

تذكَّرتُ الإنسان الذي أصرَّ على أنّه عاديّ وضيَّعتُ من ثمّ أثره. أين تراه الآن؟ لو أراه، لسحبته من ذراعه وأجلسته. لا.. لا.. لا أحتاج أن أجلسه. لو كان هناك في وطنه وكان اليوم هو يوم عيد ميلاده لالتفَّ حوله معظمُ أصدقائه يغنّون ويصفّقون سعداء. يحتفلون له بعيد ميلاد مميَّز، العملةُ فيه عواطفُ صادقةٌ لا تُباع ولا تُشترى. كان الاحتفال على المائدة المجاورة مستمرّاً. شعرتُ بحزن وألم: لا أدري هل أتألّم لأجل المحتفى به المشتري أم أحزن لعواطف العمّال البائعين؟

وصلني صحن «البيتزا» الأرخص في قائمة الطّعام، فبدأتُ بتناوله بصمتٍ احترَمَتْهُ مضيفتي.

بيروت